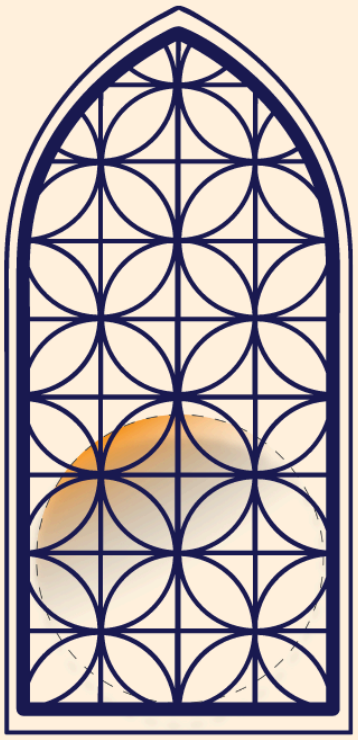

لقاءات التفسير الرمضانية

أ . أناهيد بنت عيد السميري

١٤٤٣ من الهجرة النبوية الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم

تقدّم لكم مدوّنة (عِلْمٌ يُنْتَفَعُ بِهِ) تفاريغ من دروس الأستاذة الفاضلة

أناهيد بنت عيد السميري حفظها الله

ونسأل الله أن ينفع بها.

/https://anaheedblogger.blogspot.com

تنبيهات هامة:

- منهجنا الكتاب والسّنة على فهم السّلف الصالح.
- هذه التّفاريغ من عمل الطّالبات ولم تطّلع عليها الأستاذة حفظها الله.
- الكمال لله --عزّ وجلّ--، فما ظهر لكم من صواب فمن الله وحده، وما ظهر لكم من خطأ فمن أنفسنا والشّيطان، ونستغفر الله.

والله الموفّق لما يحبّ ويرضى.

اللقاء السابع

الجمعة 7 رمضان 1443

سورة الأنعام الآيات (١٠ - ١٨)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم بارك لنا في يومنا، بارك لنا في شهرنا، بارك لنا في هذه الساعة التي نجتمع فيها على تدارس كتابك العظيم، اللهم اجعل هذه الساعة في موازيننا يوم أن نلقاك أعظم ثقلًا من الجبال الرواسي، اللهم آمين.

نجتمع في هذا اليوم المبارك من أيام هذا الشهر المبارك، نجتمع في يوم الجمعة الذي أوصينا به من قِبَل رسونا الكريم أن نكثر من الصلاة والسلام عليه، -صلّى الله عليه وسلّم- تسليمًا كثيرًا، وبهذه الصلاة والسلام يبلغ الإنسان درجات عظيمة عند رب العالمين، وسنرى اليوم في هذه الآيات المختارات من سورة الأنعام، كيف مرّ نبينا الكريم مثلما مرّ بقية الأنبياء بأذى عظيم من قِبَل من وجّه إليهم الدعوة رحمة

بهم، فما كان منهم إلا أن استهزؤوا بهم كما سنسمع، وهذا مما يزيد صلاتنا وسلامنا على الرسل جميعًا وعلى نبينا -صلّى الله عليه وسلّم-، إن شاء الله في مزيد بيان بعد سماع الآيات يظهر المعنى:

بسم الله الرّحمن الرّحيم

(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (10) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (11) قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (12) وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (13) قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (14) قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (15) مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ ۚ وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (16) وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (17) وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (18))

هذه السورة المباركة التي سمعنا منها هذه الآيات العظيمات، سورة الأنعام، سورة التوحيد، سورة تُعلمنا عن

رب العالمين، وعن استحقاقه -سبحانه وتعالى- للتوحيد وللإخلاص، وللإقبال عليه دون سواه، وفي هذه السورة خبر عن الرسل الذين قاموا بإيصال التوحيد الذي هو رحمة للعالمين، أليس الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- قد أخبرنا عنه أن الله ما أرسله إلا رحمة للعالمين (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)[1]؟ أين تكمن هذه الرحمة؟ تكمن في التوحيد في كون العبد يجد له في كل أزمة ربًا قريبًا، مجيبًا، على كل شيء قدير، وبكل شيء عليم، حكيم غاية الحكمة، رب مدبر يدبر جميع الشؤون، رب قد أظهر لعباده أنه على كل شيء قدير -سبحانه وتعالى- فيأتي الرسول الكريم ويبلغ هذه الأخبار العظيمة، التي بها تكون الرحمة للعالمين، فيكون الإنسان في رحمة من الوساوس والمخاوف، وإذا واجه الأخطار والآلام والأمراض والأحوال الصعبة في الحياة، والهموم، وجد ربًا كريمًا عظيمًا يلجأ إليه، أتى الرسول ليعرفه به.

حين يعلم الإنسان رحمة الله -عزّ وجلّ- بالخلق في هذا التوحيد الذي به أرسل الرسل وبه أنزلت الكتب ولأجله قام سوق الجنة والنار، عندما يعلم الإنسان رحمة الله -عزّ وجلّ- بالخلق في هذه الرسالة سيجد نفسه مصليًا ومسلمًا على الرسل الذين أرسلهم الله لهذه الغاية.

---

[1]() الأنبياء: 107.

لكن حين يكون الإنسان قد ابتلي في نفسه بالكبر وقد وقع في نفسه العناد فيتفنن في إظهار المكابرة والعناد، ويتصلب في التمسك بالشر والشرك الذي هو أصل الشقاء، ويصر عليه ولا يترك وسيلة من وسائل التنفير من قبول دعوة التوحيد إلا توسل بها، إلا وأخذها ليصل إلى التنفير عن هذا الدين العظيم! وكان هذا الأمر، كما في كثير من آيات كتاب الله، بدعاوى كثيرة يدّعونها، وفي سورة الأنعام قد أخبر -سبحانه وتعالى- أنهم قالوا إنه لا بد أن يكون النبي ملك أو يكون معه ملك! وكل هذا قصدهم به التعجيز والاستهزاء، لأنهم ما قالوه إلا عن يقين منهم أن ذلك لا يكون؛ ولذلك أبطل الله -عزّ وجلّ- كلامهم في الآيات السابقة، (وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ)[2] ثم ثنّى بتهديدهم -سبحانه وتعالى- على ما أرادوه من الاستهزاء؛ ولذلك بيّن الله -عزّ وجلّ- أن سنة الله في كل أمة استهزأت برسولها أن يحيق بهم العذاب.

(وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)

الآية العاشرة من سورة الأنعام فيها بيان عن هذا الأمر العظيم، وهو عقاب رب العالمين لمن وقع منه الاستهزاء، انظر للآية: (وَلَقَدِ) اللام هنا موطّئة للقسم ومؤكدة له، بمعنى: والله. و "قد" نفسها للتحقيق، فنجد هنا ثلاث مؤكدات: قسم

---

[2]() الأنعام: 8.

مقدر واللام وقد. فكأنك تقول: "هذا الخبر أكيد، أكيد، أكيد" ما هو هذا الخبر؟ أن من استهزأ برسل الله حاق به العذاب. فهذه الآية تبيّن أن الكفار استهزؤوا برسل قبل نبينا -صلّى الله عليه وسلّم-، وأنهم حاق بهم العذاب بسبب ذلك، وهذه الآية أتت على الإجمال، لكن أتى تفصيل كيفية الاستهزاء وكيفية العذاب الذي أهلكوا به في مواضع كثيرة في القرآن واقرأ ما ذكر عن نوح -عليه السلام- وقومه، وهود -عليه السلام- وقومه، وصالح -عليه السلام- وقومه، ولوط -عليه السلام- وقومه وشعيب -عليه السلام- وقومه، إلى غير ذلك. فكانت طبيعتهم الاستهزاء وكانت نتيجة هذا الاستهزاء أن حاق بهم العذاب، معنى ذلك أنه في كل زمان وفي كل مكان هناك شياطين الإنس وشياطين الجن (يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا)[3] كما أخبر -سبحانه وتعالى- في هذه السورة، وهم متفقون على الاستهزاء برسلهم، هذا محل اتفاقهم، والآية تخبر أن هذا أمر وراءه عذاب عظيم.

"حاق" بمعنى حل ونزل وأحاط بهم فلم يجدوا له مخرجًا، فنزل بهم وبال استهزائهم، وهذه سنّة قائمة لا تتغير:

"كل من استهزأ بالرسل وبدعوة الرسل وبما جاء به الرسل، تكون النتيجة أن يحيق به العذاب"

---

[3]() الأنعام: 112.

لكن هذا اختبار لأهل الإيمان؛ هل يثبتون أم لا يثبتون؟ إذا هلكوا في الدنيا سيهلكون على أقبح الوجوه ثم يردون إلى أفظع العذاب أبد الآبدين، ويكون في مقابل ذلك الرسل في منازل القرب من رب العالمين.

هذا اليقين عند أهل الإسلام، أهل الإيمان، يجعلهم يتسلّون كما تسلّى رسولنا الكريم، يتسلّون بالاستهزاء الواقع على الإسلام وعلى المسلمين وعلى دين الإسلام وعلى شرائع الإسلام، وأيضًا يجعلهم يفكرون: كيف كان النبي -صلّى الله عليه وسلّم-، الذي بُعث رحمة للعالمين، كيف كان يدعو إلى هذه الرحمة؛ يدعوهم ليناجوا ربهم سرًا وجهرًا، ليدعوه ويسألوه كل رغائبهم، ويسألوه أن يدفع عنهم كل مخاوفهم وهم في مقابل هذا يتجاهلون هذه الدعوة، ويتجاهلون هذا الحق، ويتجاهلون هذه الرحمة؟! والله لو فكروا فيما سيكون من أثر دعوة التوحيد لطابت نفوسهم، لكنهم ما تجرّدوا لله، ولم يكونوا صادقين، فما ذاقوا النعيم النعيم، إنه التوحيد النعيم، حيث أن العبد لا يتشتت في اتجاهاته، إنما يتجه مباشرة لرب العالمين، ويفزع مباشرة لرب العالمين، وهو واثق أن ربه كريم، رحيم على كل شيء قدير وبكل شيء عليم، فتبقى هذه الصفات تدور في ذهنه فتدفع كل المخاوف عنه.

لكن تصور والنبي -صلّى الله عليه وسلّم- مقبل عليهم يبشرهم بهذه الأخبار العظيمة ويعرفهم بربهم، ويقول لهم: "ربكم الكريم الغني يحدثكم عن نفسه، تعالوا، هلمّوا، اسمعوا

عنه هذه الأخبار" فيكون منهم: النفور! نعوذ بالله من النفور، نعوذ بالله من سوء الحال ومن سوء المنقلب؛ فلذا إذا صليت وسلّمت على الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- فصلِّ وسلِّم وأنت متصور ما كان يواجه من أعدائه وكم كان يسلّيه رب العالمين -سبحانه وتعالى- في وقت المشاق لأن هؤلاء كانوا يتعنتون ويستهزئون، ويبذلون جهودهم أن يهينوا النبي -صلّى الله عليه وسلّم- ويهينوا من آمن، وهذا أمر يشق على الرسول -صلّى الله عليه وسلّم- والمؤمنين -رضي الله عنهم- غاية المشقة، فكان الله يسلّيهم ويريحهم بهذه الأخبار، وبيّن -عزّ وجلّ- للنبي -صلّى الله عليه وسلّم- وللصحابة الكرام ولكل من هو سائر على دربهم أنه سيحيق بهؤلاء ما كانوا به يستهزئون، فليطمئن أهل الإيمان أن كل من حصل منه الاستهزاء سيأتيه العذاب وسيحيق به.

(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ)

ثم إن رب العالمين بيّن للمؤمنين أن الإنسان العاقل لو أراد أن يتأكد من هذا المعنى فليسِر في الأرض ليعرف أحوال أولئك الأمم ويتفكر في أنهم هلكوا لما كذبوا الرسل وعاندوا، ونحن نجد بقايا من الحضارات تشير إلى أقوام كانوا هنا موجودين، وكانوا أصحاب ثراء وأصحاب إعمار للأرض، أين هم؟ أين ذهبوا؟ أين العظماء والجبابرة الذين كانوا هنا؟!

نعم، قد أهلكهم العظيم -سبحانه وتعالى-، (فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) والسير في الأرض يكون سيرًا بالأقدام ويكون قراءة في التاريخ، فيرى الإنسان مشاهد تلك الآثار الخاوية على عروشها، ويعلم أنهم كانوا هنا ثم أهلكهم الله، فيا أيها الخلق لا تغتروا بما أنتم عليه من الشهوات واللذات، واعلموا:

- أن من سار في طريق الحق نجا ولو كان ظاهر الأمر أنه قليل الحيلة، قليل الملك، قليل السلطان.
- ومن سار في طريق الباطل سار في طريق الهلاك ولو كان معه ملك قارون وسلطان فرعون، فإن الهلاك هو مصير من سار في هذا الطريق.

(قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)

ثم إن رب العالمين علّم المؤمنين وأظهر لهم وفهمهم أنهم كلما رأوا هذه الآيات كان لهم نظر اعتبار، حتى لو كان لغيرهم نظر تسلية، فانظروا الله -عزّ وجلّ- يأمر رسوله أن يقول لهم مثلما قال لهم أولًا: (قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ) بعد هذا السير وبعدما تنظر إلى الأمم التي طويت وذهبت، ماذا تقول إلا أن الملك لله؟ (قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) لمن؟ ملك من؟ تدبير من؟ تصريف من؟ بعدما سرتم هل ترون في

سيركم وجولاتكم شيئًا لغير الله؟ والله لا يوجد شيء إلا لله، وإنما يُملّك الخلق ملكًا يغرّهم ويخدعهم إذا لم يكونوا عالمين بحقيقة الدنيا، كل شيء لله، صغيره وكبيره، فالله لما سألهم أجاب -سبحانه وتعالى- : (قُل لِّلَّهِ) هو الله لا خلاف بيني وبينكم في ذلك ولا أحد يستطيع أن يضيف شيئًا منه إلى غيره؛ لأن هؤلاء الضيوف على الدنيا يعيشون مدة ثم يرحلون، حتى أنهم يرحلون بلا استئذان، كم فاجأ الموت الخلق؟! كم من المرات يبيت الإنسان صائمًا مصليًا عند أهله، ثم يُصبح ممن يقال عنه: رحمه الله؟!

سبحان الله أمر عجيب! ضيوف الدنيا يرحلون منها بلا استئذان يخطفون منها في ثوانٍ، يذهبون، فكيف يكون لأحد شيء؟ والحقيقة أن كل شيء لله، ثم انظر كيف يعاملنا الله في هذه الدنيا؟ (كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) فرحمته -سبحانه وتعالى- شاملة واسعة لجميع الخلق كشمول ملكه وقدرته على كل شيء، فكما أنه مالك لكل شيء فهو -سبحانه وتعالى- رحمن رحيم، ورحمته وسعت كل شيء، وهذا كله لبيان أنه -سبحانه وتعالى- رؤوف بعباده، وأنه أكرمنا غاية الإكرام وأنه -سبحانه وتعالى- لا يعجل على عباده ولا ينتقم منهم، وهو -سبحانه وتعالى- قادر على أن يسلط عليهم، ويجعل عيشهم في كدر لكنه -سبحانه وتعالى- أظهر آثار رحمته في كل شيء.

فلنقبل على رب العالمين تائبين منيبين، ولنقبل على رب العالمين ونحن شاعرون بمنّته ورحمته، ومن أعظم رحمته -سبحانه وتعالى- أن خلقنا على الفطرة السوية وهدانا إلى معرفته وتوحيده بنصب الآيات الكونية، وأرسل الرسل، وأنزل الكتب المليئة بالتعريف به، والدالة على موجبات رحمته وعزائم مغفرته المحذرة من سخطه، ما أعظم هذه الرحمة بحيث يكون الإيمان له داعٍ فطري من داخلك، من فطرتك، من نظرك للكون، من سماعك للحق تصل إلى طريق الحق، لكن هؤلاء الذين استهزؤوا بدّلوا نعمة الله كفرًا، وبدلوا الفطرة تبديلًا وأعرضوا عن الآيات وكذّبوا بالكتب واستهزؤوا بالرسل! وما ظلمهم الله، ولكن كانوا هم الظالمين، ولولا أن الله كتب على نفسه الرحمة لأهلكهم هنا في الدنيا، ولولا أن الله تفضل محسنًا إلى خلقه أن أوجب على نفسه الرحمة لهلك الخلق في الدنيا قبل الآخرة، لكن هو -سبحانه وتعالى- تفضّل على نفسه بذلك، وهنا -كما مر معنا- (كتب الرحمة على نفسه) بمعنى: "أوجبها وقضاها تفضلًا منه وإحسانًا" ولا يستطيع أحد أن يوجب على الله شيئًا إلا أن هذا من فضله -سبحانه وتعالى-.

ولذلك لما كان أن الله كتب على نفسه الرحمة فلا يعاجل عباده بالعقوبة ورحمته سبقت غضبه، أعطى العباد فرص كثيرة للعودة إليه، حتى لو كانوا مستهزئين ومكابرين ومعاندين؛ علهم يعودون، لكن إذا لم يحصل هذا فليعلم الجميع

أن من رحمة الله التي كتبها على نفسه: أن يجمعنا يوم القيامة. وهذه المسألة لا بد أن تكون منّا على بال، لا بد أن نفهم أن إيماننا بيوم القيامة إنما هو إيماننا برحمة الله؛ لأنه لو لم يكن هناك جمع يوم القيامة ماذا ستكون النتيجة؟ ستكون النتيجة أن الخلق محسنهم ومسيئهم يتساوون! مؤمنهم وكافرهم يتساوون!

إذًا معنى ذلك (كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ) أنه يمهلهم ولا يهملهم. أنه يمهلهم إلى يوم القيامة ويجمعهم يوم القيامة يحشرهم ويحاسبهم كلّ على ما فعل، فكتب ربنا على نفسه الرحمة ومن آثار هذه الرحمة: ألا يساوي بين المحسن والمسيء، بل يضع كل إنسان في مكانه، ويعطي كل إنسان أجوره إن كان من المحسنين، ويعذب إن كان من المسيئين، فلنعلم أن التهديد بيوم القيامة من أعظم أسباب الرحمة في الدنيا؛ لأن الإنسان إذا خاف أدلج، إذا خاف سار سير المُجِد فلم يتلاعب ويلهو في الدنيا ويضيع الأوقات، خاصة الأوقات الفاضلة.

نلاحظ كيف أن هذه الآية مجتمعة تبيّن فضل الله علينا، انظروا السؤال: (لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ)؟ لله.

فأخبر أنه كتب على نفسه الرحمة، وأخبر أنه يجمعنا يوم القيامة، فلما علمنا أن كل ما في السماوات والأرض لله وملكه، وعلمنا أن الملك الحكيم لا يهمل أمر رعيته، وأنه لا يساوي بين المطيع والعاصي وبين المقبل والمدبر وبين

الشاغل وقته فيما أمره ربه وبين اللاهي المضيع لوقته في سفاسف الأمور، فلا بد أن يقيم القيامة، ولا بد أن يجمع الخلائق، ولا بد أن يحاسبهم؛ لذا هنا قال: (لَيَجْمَعَنَّكُمْ) فيها من التأكيد ما فيها لأجل أن تعلم أن الله -عزّ وجلّ- يريد منا أن نكون على يقين، فهذه مؤكدة بثلاث مؤكدات: القسم المقدر، واللام الواقعة في جواب القسم ونون التوكيد. يعني: والله والله والله...يجمعكم الله، فالخطاب للخلق؛ كل الأولين والآخرين مجموعون إلى ميقات يوم معلوم، نُجمع نحن مع كل من سبقنا من آبائنا وأجدادنا وأجدادهم إلى آدم -عليه السلام- وذرياتنا إلى أن تقوم الساعة، كلهم يوم القيامة مجموعون، في هذا اليوم سيقوم الناس من قبورهم لرب العالمين، هذا قيام عظيم، فكان من رحمة الله -عزّ وجلّ- أن يخبرنا به ومن رحمة الله أن أكد علينا الخبر ليكون أمام عينينا.

فلما كتب على نفسه الرحمة؛ كان

- من كتابته على نفسه الرحمة أن جعل يوم القيامة.
- ومن كتابته على نفسه الرحمة أن خوفنا من يوم القيامة.

فحين تسمع الأخبار عن يوم القيامة وكيف أن كل العالم يقوم بصيحة واحدة، يحضرون كل منهم لا يتخلف أحد منهم، قيام عظيم! الذي كان مقبورًا في الأرض، أو كان غارقًا في

البحر، أو أكلته السباع...هؤلاء كلهم يخرجون ويعودون. وهو يوم القيامة الذي يقام فيه العدل حتى يُقتص للشاة فاقدة القرون من الشاة القرناء، ويوم القيامة تقام فيه الأشهاد الذين يشهدون، هذه الأمة تشهد على الأمم السابقة، والرسول -صلّى الله عليه وسلّم- يكون شهيدًا على هذه الأمم، فهو يوم القيامة (يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ)[4] في هذا اليوم يضع الله الموازين القسط ليوم القيامة.

ثم انظر للآية كيف يؤكد رب العالمين علينا هذا اليوم وأنه لا ريب فيه أبدًا، فلنكن متيقظين، هذا نفي يراد فيه تأكيد الإثبات أنه سيجمعكم الله لا ريب فيه، فلا ترتابوا، ولا يرتاب إنسان في هذا الأمر إلا لخلل في عقله لأن الحكمة العظيمة التي خلقت بها الأرض، ووضع كل شيء في مكانه، لا بد أن يقول للإنسان أنه لا يمكن أن يبقى المحسن محسنًا ويموت وهو محسن ولا يجازى، ويموت المسيء مسيئًا ويموت الظالم ظالمًا، ويموت المظلوم مظلومًا وتنتهي القضية على ذلك، لا والله! لا ريب أن الله يجمعنا، فهذا من كمال الرحمة، الجزاء من كمال الرحمة؛ لأنه بدون الجزاء تضيع أعمال العباد الصالحة، وتضيع المظالم والدنيا ليست دار جزاء، الدنيا دار التكليف، ودار التكليف لا تكون دار الجزاء، فأنت في قاعة الاختبار، هذه قاعة تختبر فيها فقط ليست مكان ظهور النتائج، إنما ظهور النتائج حين يلقى الإنسان ربه، فليكن هذا منّا على

---

[4]() المطففين: 6.

بال، ولنشعر برحمة الله في جعل يوم القيامة وفي تخويفنا منه لكي يكون منا لاستعداد.

ثم زاد الخوف بإظهار حال هؤلاء المستهزئين الذين وصفهم رب العالمين هنا: (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ) نعم، لقد (خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ) التي بين جنبيهم. وهنا يجب أن نتصور المسألة جيدًا؛ فإن الله خلق لنا بدنًا، وجعل في هذه البدن نفسًا وجعل للنفس قوى وقدرات، وجعل للبدن قوى وقدرات، وجعل بينهم من الصلة التي تخفى على الخلق.

فالنفس التي بين جنبينا يخدمها البدن وهي سبب لإنقاذ البدن من العذاب، فحين تتحدث النفس أو تسمع النفس كلامها، وتسمع الحق وتحدث نفسها بالحق الذي سمعته، ولنزيد الأمر بيانا نقول:

- إن لنا آذان وأعين وألسنة وقلوب في أبداننا، فنسمع من يحدثنا ونتكلم مع الخلق فيسمعونا، ونرى الأمور وقلبنا ينبض بالدماء ودماغنا يرسل الإشارات، هذا كله في البدن.
- والنفس فيها أذن وفيها لسان وفيها عين، ألا ترى أننا نحدث أنفسنا ونسمع أنفسنا ونبصر الأمور من داخلنا، بصيرة مختلفة عما تراه أعيننا، على حسب ما تكون في نفسنا من تفاؤل أو يأس؟

فهذه نفسك الداخلية وهذا بدنك وبينهم من الصلة ما الله به عليم. ولاحظ النوم، في الأحاديث دليل على أن هذ النفس تخرج ثم تعود، فهناك صلة بين البدن والروح والنفس الله بها عليم. كل هذا الكلام نقوله لنفهم معنى: (خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ) فهذه النفس فيها رأسمال الإنسان؛ الفطرة السوية، العقل السليم الذي ينشأ من العلم ومن حسن التفكير.

فـ(خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ) بتضييع رأسمالهم، وهي فطرتهم السوية وعقولهم السلمية.

(خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ) بأنهم ما سمعوا من الرسول -صلّى الله عليه وسلّم-وما استمعوا إلى الوحي، ما رأوا آثار رحمة الله بالخلق.

فهؤلاء (خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)؛ لا يصدقون بالمعاد ولا يخافون ما خوفهم الله من هذا المعاد، فتكون النتيجة أن الإنسان بدلًا من أن ينتفع من رحمة الله -نعوذ بالله- يدخل في شقاء، يدخل في غضب الله، رغم أننا، كما نعرف في الحديث الذي رواه أبو هريرة -رضي الله عنه- قال رسول -صلّى الله عليه وسلّم- : «لما خلق اللهُ الخَلْقَ كتب في كتاب، فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تَغْلِبُ غضبي»[5] إذا كانت رحمة الله تغلب غضبه فمن هذا الشقي الذي لا يجد لنفسه مكانًا في رحمة الله.

---

[5]() أخرجه البخاري (7404).

هذا المعنى تكرر في هذه السورة بصورة ملفتة؛ الخبر عن أن الله -عزّ وجلّ- قد تفضل على الخلق بأن كتب على نفسه الرحمة، هو مالك الملك وهو الذي كتب على نفسه الرحمة، وهو الذي من رحمته علمنا أنه سيجمعنا وهو -سبحانه وتعالى- مع ملكه ومع علمه:

(وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)

له ما سكن في الليل والنهار، وهذه أيضا من الأخبار العظيمة عن رب العالمين، الله -عزّ وجلّ- أخبر بأن السماوات والأرض ملك له، فكل مكان ملك لله! هنا : (وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) فتعرف أن الله كل مكان له وكل زمان له، والزمان والمكان هما الحياة، هما الظرفان اللذان تحصل فيهما الأحداث، فالله مالك لكل مكان ومالك لكل زمان، وهذا بيان لجلاله وعظمته -سبحان وتعالى- فأي إنسان عاقل حين يعرف أنه في تدبير الملك الذي له كل مكان، الملك الذي له كل زمان، ليل ونهار، هل بعد هذا إلى غيره يلجأ؟ أو قلبه بغير الله يتعلق؟ هل بعد هذا يشعر الإنسان أن هناك ملجأ له غير الله؟ إنه المدبر، فإذا عرف الإنسان هذا وبقي في ذهنه أن ربه كتب على نفسه الرحمة، فيبذل جهده أن يحمل نفسه على الرضا عن الله وعلى الرضا عن أقداره، ويجد أن كل الأقدار التي يمر بها إنما هي اختبارات للصبر والشكر، وإنما هي أحوال تطيب للعبد خاصة حين يلقى ربه.

فليكن هذا منّا على بال، لله كل الأماكن وله تعالى كل ما حصل في الليل والنهار مما طلعت عليه الشمس أو غربت، فلنعلم أن ما سكن في الليل والنهار، أو ما تحرك فهو لله، وهو -سبحانه وتعالى- السميع العليم، فمهما أصابك من شيء في ليلك أو نهارك فلتعلم أن ملجأك إلى الله، وأنه هو -سبحانه وتعالى- القريب، المجيب، ولذلك السميع العليم؛ السميع لكل مسموع، العليم بكل معلوم فلا يخفى عليه شيء مما يشتمل عليه الليل والنهار، وهنا، لأجل أن نزيد بيانًا في وجود هذين الاسمين ومناسبتهما للتوحيد: لا بد أن نذكر بأن سمع الله سمع إجابة وسمع صوت.

سمع إجابة مثل أن نقول: "سمع الله لمن حمده" ومثل قوله تعالى: (إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ)[6] فلا تبخل على نفسك بالدعاء أيها المؤمن، ادع كل ما تشتهي نفسك من الشؤون، كل الهموم والغموم افزع بها إلى رب العالمين، فربنا يسمع الصوت ويجيب، وهو -سبحانه وتعالى- سميع يؤيد وينصر بسمعه (قَالَ لَا تَخَافَا ۖ إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ)[7] فليكن هذا الأمر على بالنا، ولنكثر من مناجاة ربنا، ومن مناداته، ومن ذكره ورجائه، فهو سميع لا يغيب عن خلقه وهو -سبحانه وتعالى- العليم.

---

[6]() إبراهيم: 39.

[7]() طه: 46.

فهو سميع الدعاء، عليم بأحوال العباد، فلا يكن منّا إلا الفزع إليه، فهو مالك السكون والحركة فلا يتحرك متحرك إلا بأمره، ولا يسكن ساكن إلا بأمره.

وهو يسمعنا، فهو الذي يحبس عنا الشر ويرزقنا الخيرات ويلقي في قلوبنا محاسن الأقوال والأعمال، فلنطلب منه -سبحانه وتعالى- أن يحبب الإيمان ويزينه في قلوبنا وقلوب ذرياتنا، فيكون هو ولينا فهو خير مسؤول وهو الذي كتب على نفسه الرحمة فكيف يطرق باب غيره ويرجى غيره.

ولذا الله -عزّ وجلّ- يأمر رسوله أن يقول هذا القول العظيم:

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا) كيف؟ كيف أتخذ غير الله وليًا؟ لا أتخذ وليًّا إلا الله وحده فهو الذي يتولى أمري، هل أتولى هؤلاء العاجزين القاصرين عن أن ينفعوا أنفسهم فكيف ينفعون غيرهم؟ ما أتخذ غير الله وليًا فهو الذي يتولاني برحمته، أما غير الله فإنه لا يستطيع أن يتولى نفسه ليتولى غيره!

الله الذي له ملك السماوات والأرض، الله الذي له ما سكن في الليل والنهار، الله الذي كتب على نفسه الرحمة فكيف أستنصر بغيره وأطلب وأناجي وأسأل غيره؟ هل غير الله يلي

جميع أموري؟ لا والله! كيف أكلف نفسي شيئًا ضد فطرتي وضد عقلي؟! لأن الفطرة السوية والعقل المجرد عن الهوى يقول: لا يُسأل إلا من يملك، لا يُطلب إلا من بيده العطاء، فهل غير الله أتخذ وليًّا؟! سبحان الله، كيف يكون هذا؟ هذا من السفة العظيم! فلا أتخذ غير الله وليًا يتولاني برحمته، وأنا متأكد أنه يتولاني برحمته لأنه كتب على نفسه الرحمة.

فهذا الاستفهام للإنكار؛ ينكر عليهم أن يكون هناك غير الله وليًّا يستحق أن أتولاه وأعبده وأنكسر بين يديه، وكلّما احتجت إلى أمر فزعت إليه، فهو ناصري ومدبري وهو العليم القدير -سبحانه وتعالى- وكلّما زدت معرفة به كلّما زدت طمأنينة إلى ولايته، فزد معرفة به واعلم أنه فاطر السماوات والأرض -سبحانه وتعالى- خالقهما على غير مثال سابق، ويكفيني أنه فاطر السماوات والأرض لأكون عبدًا له، لأكون مفتقرًا إلى الله، فكل سبب للبقاء بيد الله، وكل سبب للصلاح والرزق والشفاء بيد الله، فكيف إذا احتجت شيئًا سألت غير الله؟!

(قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا) كيف وهو فاطر السماوات والأرض؟

ثم نلحظ أنه -سبحانه وتعالى- وصف نفسه بوصف عجيب يحتاج أن يفكر فيه الإنسان ليعترف بأمر عظيم في حياتنا، وصف نفسه -سبحانه وتعالى- أنه هو الذي يُطعم الخلائق وأنه لا يحتاج إلى طعام فهو الصمد الغني على الإطلاق،

وهنا نلحظ أمرًا مهمًا في فائدة اتخاذه وليًّا يعني هو -سبحانه وتعالى-:

- مُطعم الخلق جميعًا.
- هو الرزاق وحده.
- وهو -سبحانه وتعالى- لا يبلغ أحد نفعه فينفعه.

فإذًا كل تدبير وكل أمر وكل عبادة أمرنا بها هل الله محتاج إليها؟ لا والله فهو -سبحانه- الغني على الإطلاق ليس محتاجًا في ذاته وفي جميع صفاته لأي شيء -سبحانه وتعالى- وهذه لفتة عجيبة لأننا بعد سورة المائدة التي أتى فيها دليل على أن المسيح إنما هو ابن مريم وليس إله، كان من الأدلة على ذلك قوله تعالى: (وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ)[8] في المائدة أخبر -سبحانه وتعالى- أنهما (كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ) وفي الأنعام أخبر دليلًا على توحيده أنه -سبحانه وتعالى- لا يحتاج إلى إطعام أبدًا، فهو غني عن كل الخلق، ووالله أنه ما من طاعم في الأرض إلا والله هو الذي أطعمه، يسّر له الطعام ولولا ذلك ما وصل إليه الطعام. (أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (63) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ)[9] ماذا نجيب؟ أنت يا ربنا، لذلك (لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا) لو شاء الله لحطّمه ما طعمناه.

---

[8] () المائدة: 75.

[9] () الواقعة: 63-64.

(أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (68) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ)[10] بل أنت يا ربنا أنزلت هذا الطعام وهذا الشراب، وهذا الماء.

(أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ) سبحان الله، فالطعام لو ما شاء الله أن نطعمه لما وجدناه، وهذا أمر تطول مناقشته لكن في نهاية الأمر، فلنعلم أننا جميعا إلى الله فقراء وهو وحده الغني وهذا مما يزيد توحيدنا وإيماننا ورجوعنا إلى ربنا ووقوفنا بين يديه؛ لذا (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ) النبي -صلّى الله عليه وسلّم- يعلن للناس أنه أول من أسلم من هذه الأمة، أسلم استسلامًا لله ظاهرًا وباطنًا.

(وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ) كما أمر النبي -صلّى الله عليه وسلّم- أن يعلن أنه لن يتخذ وليًّا من دون الله ونحن نقتدي به -صلّى الله عليه وسلّم- ولا نلجأ إلا لله لأن الله هو الولي الحميد، وكذلك أمرنا أن نقول مثلما قال رسولنا: إننا من المسلمين، وأن نكون بعيدين كل البعد عن الشرك أكبره وأصغره، نسال الله أن يحفظنا من الشرك وأنواعه، اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال الإكرام، اجعلنا من الموحدين المؤمنين الطائعين، الراغبين إليك، واجعلنا على هدي رسولنا الكريم، نقول كما قال، نقول: ما في السماوات والأرض لله، نقول: لا أتخذ إلا الله وليًّا، نقول: نحن من

---

[10]() الواقعة: 68-69.

المسلمين، نقول: لسنا من المشركين بشيء، وهذا كله والقلب مليء بالإيمان برحمة الله والخوف من معصية الله.

(قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ)

فكما أن لدينا الرغبة في رحمته كذلك يجب أن يكون عندنا الخوف من معصيته، ولنعلم كما أخبر ربنا أن (مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ) الله كتب على نفسه الرحمة، وأنت يا عبد خذ أسباب الرحمة، ومن أعظم أسباب الرحمة أن تكون لله طائعًا، خائفًا من أن تلقى الله وأنت لم تقم بما يجب عليك، الله هو الذي أرجو إن أطعته أن يرحمني، (مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ) هذا العذاب (يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ) بالنجاة وأنعم عليه بدخول الجنة، وهذا كما في قوله تعالى: (فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ)[11] ، (وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ) اللهم اجعلنا من الفائزين، نحن ووالدينا ووالديهم وذريتنا وأحبابنا والمسلمين، اللهم فرج هم المهمومين وارحم موتى المسلمين واشف مرضانا ومرضى المسلمين، وأزل عنا كل عوائق الاستقامة على الدين، اللهم ثبتنا على الصراط المستقيم وألحقنا بك ونحن من الصالحين، ارحم موتانا وموتى المسلمين، اللهم آمين.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

---

[11]() آل عمران: 185.